خلّ سبيلها

لما أجمعت قريش علىٰ الخروج إلىٰ أُحد لمحاربة رسول الله ﷺ ، كتب العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ كتاباً إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام ، يخبره فيه بمسير قريش وعدد المقاتلين ، وختم الكتاب ، واستأجر رجلاً من بني غفار ، واشترط عليه أن يصل إلىٰ المدينة في ثلاثة أيام ، ويُعطي الكتاب إلىٰ رسول الله ﷺ بيده ، ولا يسلّمه إلىٰ أحد غيره .

فقدم الرجل الغفاري فلم يجد رسول الله ﷺ في المدينة ، وعلم أنه في قباء ، فخرج الغفاري إليه ، فوجد النبي ﷺ علىٰ باب مسجد قباء يركب حماره، فدفع إليه الكتاب، فاستدعىٰ النبي ﷺ أُبيّ بن كعب رضي الله عنه ، فقرأه عليه ، واستكتم النبيّ أُبيّاً ما في الكتاب ، ثم دخل الرسول ﷺ منزل سعد بن الربيع رضي الله عنه ، فقال: «أفي البيت أحد؟» ، قال سعد: لا ، فتكلّم بحاجتك يا رسول الله .

فأخبره الرسول ﷺ بكتاب عمّه العباس عن مسير قريش ، فقال سعد: يا رسول الله! إني لأرجو أن يكون في ذلك خير .

واستكتم رسول الله ﷺ سعداً الخبر ، وانصرف إلىٰ المدينة .

ولما انصرف الرسول صلوات الله عليه ، خرجت امرأة سعد بن الربيع إلىٰ زوجها ، وسألته: ما قال لك رسول الله؟ ، فقال سعد: مالكِ ولذلك ، لا أمّ لك؟ .

قالت: قد كنتُ أسمع عليك ، وأخبرتْ سعداً بالذي قاله رسول الله ﷺ. فاسترجع سعد ـ أي قال: لا حول ولا قوة إلا بالله ـ ، أو: إنا لله وإنا إليه

راجعون ـ وقال: لا أراك تستمعين علينا ، وأنا أقول لرسول الله ﷺ تكلّم بحاجتك.

ثم أخذ سعد يجمع لِمَّة زوجته[1] ، ثم خرج يعدو بها حتىٰ أدرك رسول الله ﷺ بالجسر[2] ، وقد بَلَحَت زوجته[3].

فقال: يا رسول الله! إن امرأتي سألتني عمّا قلت لي ، فكتمتها.

فقالت: قد سمعت رسول الله ﷺ ، فجاءت بالحديث كله ، فخشيتُ يا رسول الله أن يظهر من ذلك شيء، فتظن أني أفشيتُ سرّك.

فقال الرسول ﷺ: «خلّ سبيلها» ، ثم أرجف المنافقون واليهود في المدينة بمسير قريش ، وكانت قريش قد أخبرتهم بذلك ليبثّوا الشائعات ويثبّطوا العزائم[4].

فداك أبي وأمي يا رسول الله يا أحمد:

والله ربـــي لا نفـــارق مـــاجـــداً ... عـــفَّ الخليقـــة مـــاجـــدَ الأجـــدادِ
متكـــرّمـــاً يـــدعـــو إلـــىٰ ربّ العُلـــىٰ ... بـــذْلَ النصيحـــة رافـــع الأعمـــادِ
مثـــل الهـــلال مبـــاركـــاً ذا رحمـــةٍ ... سمـــحَ الخليقـــة طيّـــب الأعـــوادِ
إن تتـــركـــوه فـــإن ربـــي قـــادرٌ ... أمســـىٰ يعـــود بفضلـــه العـــوّادِ
والله ربـــي لا نفـــارقُ أمـــره ... مـــا كـــان عيـــشٌ يُـــرتجـــىٰ لمعـــادِ
لا نبتغـــي ربّـــاً ســـواه نـــاصـــراً ... حتـــىٰ نُـــوافـــي ضحـــوة الميعـــادِ

* * *

(١) أي: شَعر رأسها.

(٢) هو جسر بطحان قرب مسجد الغمامة بالمدينة المنورة.

(٣) أي: أُغمي عليها وفقدت وعيها.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ٢٦ ـ ٢٧.